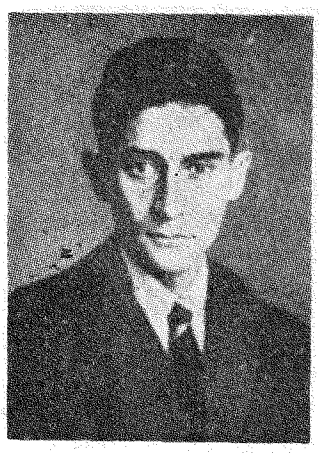

كافكا والموت ..

تقديم وترجمة لقصة كافكا « في مستعمرة العقاب »

بقلم الدكتور عبد الحميد ابراهيم

١ ـ التقديم

الموت (*) هو النغمة الرئيسية المسيطرة على هذه القصة ، و« آلة الموت » هي البطل الحقيقي فيها فالحديث عن اجزائها ودقائقها ووظائفها يملأ وجود القصة ويشيع فيها لونا من الكآبة ، والضابط يعتز بهذه الآلة التي تنفذ حكم الاعدام آليا ويتحدث عنها وعن ضحاياها حديث الولهان بل ان الموت يختلط عنده باللذة فلم يعد هو ذلك الشيء المنفر المرعب ، بل هو ذلك الشيء الجذاب الذي يضفي على وجه الضحية نورا ، يبدأ من العينين ثم يشع حولها ويسول للشخص بان يلقي بنفسه تحت « جراف الآلة » ويجعل المتفرجين يسبحون في نشوة صوفية ويخفضون اعينهم امام هذا المنظر القدس . وحين احس الضابط انه مهدد فيها ـ وهو الذي ارتبط وجوده بوجودها ـ القى بنفسه تحتها فمزقته أشلاء وطوحته فوق المقبرة وقد اكتسى وجهه امارات الهدوء والرضا .

وهي نغمة تتردد بوجوه مختلفة في اعمال كافكا « فجوزيف ك » في رواية « القضية » يصبح ذات يوم فاذا بشرخ يصيبه فيحوله عن مجراه العادي ، لقد اصبح متهما ولكنه لا يعرف قضاته ولا تهمته ولا كيفية الدفاع عن نفسه ، ويعيش بدءا من تلك اللحظة في عالم كله رعب وعبث ، ويحاول ان يصل الى شيء فلا يقابل الا بالتضليل وبالقليل الذي لا يفيد . فالمحامي والكاهن والمصور يتناقشون معه حول قضيته ولكنها مناقشة تدور في حلقة مفرغة لا يدري اين طرفاها ، ويظل امر قضيته غامضا وامر قضاته مجهولا حتى ينفذ عليه الحكم ذات يوم شخصان يلبسان قلنسونين اسطوانيتين ولا يبدو انهما من البشر ، فيطعنانه في خلاء بمدية حادة . ومات ولم ينطق الا بكلمة « كالكلب » وكانما اراد ـ على حد تعبير كافكا ـ ان يعيش الخجل بعد موته . بل ان الموت يتسلل داخل ابطاله فينخر فيها ، فالقارىء لتحليلات جوزيف في « القضية » او تحليلات كارل في « امريكا » يجدها تحليلات يهدم بعضها بعضا واستنتاجات تبدو عقلية ولكن الجملة التالية تهدم وبسرعة سابقتها وبصورة تبدو كذلك منطقية فلا تستطيع الشخصية ان تصل الى قرار ، وهي تحليلات تكثر عن كافكا وتدل على تردد شخصياته وضياع عنصر المبادأة منها .

ويحس الانسان في قصة « في مستعمرة العقاب » انه قد القى به في عالم لا يحتمل ، عالم الرشوة والاختلاس والشك والسرقة والبيروقراطية والظلم والقسوة من ناحية ، عالم الوجوه المصفرة والذقون التي توحي بالمسكنة من الناحية الاخرى ، عالم الزعيم المتعالي الذي لا يرى ولكن يلقى بظله الثقيل على كل شيء ، عالم الاماكن الرطبة والقبور المحفورة والسقوف المنخفضة والجزر النائية والهواء الثقيل والسراديب الطويلة ، عالم الدماء والسوائل الحمضية بافضل الطرق ، عالم كله تشوهات وقبح يتحلل فيه كل شيء الى مستواه البدائي فلا جمال ولا نظام ولا منطق ولا تحقيق لادنى المستويات الاجتماعية ، حتى الجنس يمارس بمستواه الاولي ، عالم يذكر بلوحة « مارك شاجال » عن عالم الحرب (عرضت بفندق سمير اميس سنة ١٩٦٩) الذي تصوره ممزقا ومفككا ومن خلال الاشياء المتناثرة عشوائيا ومن خلال خطر احمر فان (كافكا في الفترة التي تقع بين الحربين) ، عالم تنفصل فيه الانا عن غيرها من الانوات ، عالم الصدفة المتخبطة التي تتحكم في مصير الشخصيات : فالجندي يحكم عليه بالموت دون ان يعرف نوع الحكم وفجاة وبلا سبب معقول عنده يجد نفسه حرا ويجد قاتله في مكانه ، تماما كما حدث « لابيانا » في قصة « الجدار » لسارتر فقد نال الحياة عن طريق كذبة حولتها الصدمة المحضة الى حقيقة لصالحه . والانسان في هذا العالم المختلط يحس انه فاقد الصلة بالمطلق وانه بعيد عن « عدالة الاله » التي لا تهتم بما يجري على الارض فان لها في عالمها المنفصل مقاييسها التي لا تقارن بمقاييس الارض . وكل ما على الانسان ان ينصاع لقدره ولا ينافس ويتمسك بالحكمة التي صارت مثلا سائر في قصة « سور الصين » وهي « لا يجب التفكير فيما هو ابعد من الحدود » ... ان تنفيذ الاوامر التي لا يعقل لها معنى هو مقياس نجاح الانسان كما حدث مع ابراهيم حين قبل التضحية بابنه دون ان يسال عن المغزى . وهي النصيحة نفسها التي يوجهها الكاهن في رواية « القضية » للمتهم اذ يقول له « لا ينبغي أن يعتبر الانسان كل شيء حقا وصدقا ، ولكن ينبغي على الانسان ان يعتبر كل شيء ضروريا وحسب » (١)

(*) ولد فرانز كافكا في مدينة « براغ » سنة ١٨٨٣ ، وفي سنة ١٩٠٦ حصل على الدكتوراه في القانون وامضى عاما في التدريب بالمحاكم ، واشتغل سنة ١٩٠٨ في مؤسسة التأمين على العمال ضد الحوادث وظل يترقى بها الى ان وصل سنة ١٩٢٢ الى منصب سكرتير اول المؤسسة حيث اضطر بسبب المرض الى الاستقالة ، ولم يكن هذا المرض سوى السل الذي ظل يشتد حتى فتك به فمات سنة ١٩٢٤ ، بدأ يعالج الكتابة منذ سنة ١٨٩٧ ونشر في حياته بعض اعماله القصيرة ، اما اعماله الكبيرة فلم تظهر الا بعد وفاته .

اما قصته in The Penal Settlement فقد نشرت سنة ١٩١٤ ، واقدمها عن الترجمة الانجليزية التي قام بها « ويلياوادوين موير » ونشرت سنة ١٩٦٩ في كتاب :
The Penguin Book of Modern Suropean Short Stories

(١) القضية ص ٢٨٧ (دار الكاتب العربي بالقاهرة)

وكافكا يقف عند هـذا العالم الذي يتردد كثيرا في قصصه ويدور في منحنياته دون خطوة جسورة تتجاوزه ، فالامـر ينتهي بالرائد فـي قصة ((مستعمرة العقاب)) بأن يغادر هذه الجزيرة بمن عليهـا ويـرفض ان يصطحب معه أحدا ، وينتهي بجوزيف في رواية ((القضية)) بان يداهمه الموت وهـو لا يعرف من تهمته شيئـا .

وحقا قد تحطمت الآلـة في هذه القصة ومات الضابط واستيقظ امل مع وجود الزعيم الجديد ، وحقـا ان جوزيف مات وهو يلاحظ من بعيـد ((شباكـا)) يفتح ونوراً يظهر ، وحقا ان ماكس برود ذكـر ان روايـة ((امريكا)) كانت ستنتهي ـ كما كان يحدثه كافكا ـ وقد وجـد البطل الصغير وظيفـة وسندا ووجد كذلك بيته ووالديه كأنما بشـيء من السحر العلوي . ولكـن يظل كل هـذا مجرد لمحات حائرة لا تشير الى الطريق ولا تساهم في الخلاص ، لقـد كان الخلاص عند فوكر فـي روايته ((الصخب والعنف)) يتمثل في ((زهـــرة الجمسن)) يشمها ((بنجي)) فيكف عن النياح ، وكان الخلاص عند فرجينيا وولف فـي روايـة ((الامواج)) يتركز في ((بيرسيفال)) الذي كان يناضل بعيدا في الهند . وهذا الامر المنعش ـ هنا وهناك ـ نفتقـده عند كافكـا فنعيش الموت في ابشـع صوره والغربة دون محاولة تخطيهـا .

والغربة عند كافكا ليست كما فهمها ماركس في تنحية الشخص عن المساهمـة الخلاقـة في عمليـة الانتاج بحيث يتحول في ظل سيطـرة الآلـة الي شيء وتقتصر معاملته مـع الاشياء . وليست الغربة عنـده في الاحساس بالعبث بسبب البيروقراطية والانظمة الفاسدة والمجتمع البورجوازي كما حاول ((ارنست فيشر)) ان يفسرهـا (١) وهو ينظـر الى مثل هذه النماذج والمواقف التي تنبث في قصصه . ولكن الغربـة عنده في مشكلـة الوجود وعبثيـة الكـون انها في شيء ميتافيزيقـي يتجاوز المادة والاوضاع ، ان المتهم يصيبه شرخ يخرج به عن حياتـه العاديـة المرفهـة ويحاول ان يصل الى ((معنى))فـلا يجابه الا بالكثافة والسفسطـة ، وان ((كارل روسمان)) نضيع منه صورة والديـه فـي ((امريكا)) وعبثا يحاول ان يجدها . ويكتشف وجود ريشة بيضاء كانت قد طارت من جناح احد ملائكـة ((مسرح اوكلوهوما الطبيعي)) جعـل الاطفـال يعبثـون بهـا ويتشاجرون حولهـا .

على ان هذا الاحساس بالغربة الذي وقف عنده كافكا ولم يتجاوزه يفوق بكثير وعلى اي حال حياة الطمأنينة والجمود ، انه في تحليلـه النهائي يحمل قدرا من الاندهاش ووعيا بالغربه ، انه كفاح ضد الغربة في صميم الغربة نفسها كمـا قال جارودي (٢) وهو يعني الوعي بالغربة دون تخطيهـا ، فجوزيف بعد مأساته افضل بكثير عمـا كان عليه وهـو في وظيفتـه وعلاقاته الاجتمـاعيـة المستقرة حيث كـان اشبه بهـذا المكتب وبتلـك الحديقـة التي تفتح في ميقات وتقفل في ميقات .هنا ذلـك الشيء الذي يكسر المألوف ويثير الدهشة وينقل الشخص من شبح الشيئية الى عالم الشك والقلق ، وهـو الـذي قـد اضفى المتهـم شيئا مـن الجمال والاغراء يرجعه محاميه الى التهمة القائمة عليه .وهو الشيء نفسه الذي يتساءل عنه سارتر في رواية ((الغثيان)) ازاء سكان مدينة ((بوفيل)) الطيبين ، فماذا يحدث لهؤلاء الذيـن يعيشـون مـع ميـاه الصنابير المستأنسة ومع المصابيح الكهربية ومع معلوماتهم الثابتة عـن درجـة الحرارة ، ماذا يحدث لهم لو نظر احدهم ذات يوم الـى المـرآة فوجد لسانه قد تحول الى حشرة ذات الف رجل ، او رأت الام على خد ابنهـا دمـلا جعل يتحول الى عين ثالثة ، او رأي احدهم خرقة في الطريق فاذا بهـا تتحول الى قطعة لحم تتخبط في دمائها ؟

وقد عبر كافكا عن غربته بهذا الشكل التقليدي الذي يعتمـد على التسلسل الزمني وعلى الحادثة وعلى بناء شخصيات من اسمـاء ومهن وأوضاع اجتماعية محددة ، ولا يزال الانسان عنده يحتـل المدور الرئيسي في احداث الرواية وكل ما حوله توابع له اما موضحة او معادية او مستخدمة ، ولكنها في جملتها ليست ذات استقلال ، على عكس ما حاول جريبه ان يفس أعمال كافكا (٣) ليقترب بهـا مـن مذهبه الجديد في الاحتفاء بالشيء .. ان تجديد كافكا من حيـث الشكل تجديد ظاهري اكتفى فيه بالاغتراب الى عالم رمزي قد يكـون عالم الصراصير كما في قصته ((التحول)) ، او عالم الشرق كما يبـدو من قصته هذه ، او العالم الجديد كما في روايته ((امريكا)) ، وسواء كان هذا او غيره فان الرمز بشيء الى شيء اخر وسيلة قديمة عرفت من قبل ((بيدبا الفيلسوف)) مع فارق هام وجوهري وهو ان الرمـز القديم كان يسير في خطين متوازيين يتحرك بينهما الذهن في حركة انتقالية وارتباطية بين عالم الرمز (عالم ابن آوى ((كليله ودمنة)) مثلا) وبين عالم المرموز اليه (عالم دبشيم الملك وبيدبا الفيلسوف) ولكـن هذين الخطين يندمجان عند كافكا في شيء واحد هو ذلك العالم الخيالي الواقعي ، اي عالمنا من خلال حدقتي فنان يراه في صورة تتوارى وراء الصورة المكشوفة للانسان العادي ، فشخصياته شخصيات واقعيـة ورامزة لوجهة نظر الفنان ، وقد قال جارودي فيما يشبه هـذا المعنى ((لقد خلق كافكا عالما خياليا بمواد عالمنا هذا مـع اعـادة ترتيبها وفقـا لقوانيـن اخرى)) (٤) .

ولهذا بقي الشكل عند كافكا في هندسته المتوارثـة لـم يصبه اهتزاز كما اصاب نفوس شخصياته ، ولم يجرؤ على مغامرة صميمية في هذا الميدان . ان فرجينيا وولف ـ مثلا ـ في روايتها ((الامـواج)) تحتار امام الوجود الملغز فتتحول تجربتها الى معادل فني لهذه الحيرة، تجد فيه التخبط والاضطراب ومن خلال اسلوب يبدو كذلك مضطربا ومتناقضا ويحمل في الوقت نفسه سر حيويته وقدرته على الايحـاء بتلك التجربة التي يصبح فيها ابطالها الستة مثل ((قطعة من الفلين على سطح بحر ثائر))(٥) على حد تعبير رودا وهو واحـد مـن تلـك الشخصيات التي لا تعرف رأسها من رجلها . وهنا سر الاضطراب في ((المونولوج)) الداخلي للشخص الواحد ، وسر عدم تجديد المكان لان تحديده يوحي بالمحلية والضيق ، وفرجينيا تريد ان تتجاوز ذلك الى حقيقة خالدة وغير مرتبطة بوضع اجتماعي معين ، فالحيرة هنا ليست حيرة فرد في وضع اجتماعي معين او ازاء مشكلة معينة كما في معظم روايات القرن التاسع عشر ، ولكنها حيرة الانسان ازاء الكون ومن هنا نجد في روايتها حاملات الجرار فوق النيل وساكني الكهوف والادغال، ونجد الامواج والرياح وشعاع الشمس ، ونجد الدودة والشرنقـة والقارضة ، ونجد برنارد هولويس اوسوران أورورا ، ونجد الطفـل قد شاب شعره وابيض فوده ، وباختصار يتحول كل شيء الـى معادل فني هو التجربة في وجودها النهائي .

ان كافكا في روايته ((امريكا)) يلقي بصبي صغير هو كارل روسمان الى عالم كله رعب وعداء مبني على الصدفة والمباغتة ويلعب القـدر فيه الدور الرئيسي ، ان كارل يهاجر الى الدنيا الجديدة ، ويتبـع المؤلف رحلته من خلال فصول متتالية يرويها عن مغامراته ، ومن خلال شكل يحافظ على تقاليد الرواية في القرن التاسع عشر ، ويستفيد بما عند الرواية البوليسية من تشويق واثارة وبناء جو من المباغتـة والمطاردة . ولكن كافكا يرتفع بكل هذا الى التعبير عن مأساة الانسان في هذا الكون اللامفهوم الذي لا يجد فيه نصيرا ولا ملجأ ولا منطقا. وكل شيء يتخلى عن هذا البطل فجأة وفي ظروف سيئة ، ان خالـه يبلغه في منتصف الليل وعن طريق شخص ثقيل قراره بأنه لا يريد ان يراه ، فيخرج الى الدنيا ويلتقي بمتشردين يصبحان قدره الذي يطارده ويحاول ان يتخلص منهما فلا يستطيع . لقد كاشفه ((روبنسون)) بهذه الحقيقة حين قال ((انك سوف تبقى هنا انت ايضا حتى لو عامـلك

١ ـ الاشتراكية والفن ص ١٢٤ (كتاب الهلال ـ يونيه ١٩٦٦)

(٢) واقعية بلا ضفاف (دار الكاتب العربي ـ ١٩٦٨)

(٣) نحو روايـة جديدة ص ١٤٦ ((دار المعارف بالقاهرة))

(٤) واقعية بلا ضفاف ص ٢٢٤

(٥) الامواج ص ٧٨(دار الكاتب العربي ـ سنة ١٩٦٨).

بصورة اسوأ كثيرا من هذه (١))) . اننا هنا ازاء تراجيديا تشبه التراجيديا اليونانية مع فارق يعكس تطور نظرة الانسان المعاصر الى الكون وتعقد هذه النظرة ومن ثم تعقد الحلول . فقد سهلا امام التراجيديا القديمة وسيلة التعبير ، فخبرة انسان ((سوفوكليس)) وعجزه قد ربطهما بسبب منطقي من وجهة نظره فهو عجز بسبب القضاء والقدر وبسبب تلك القوة العليا المتمثلة في ((ابي الهول)) الصامت ذي الوجه الرهيب والجسد القوي والأنف الأفطس الذي لا مرد لقضائه ولا جدوى من مناقشته ، اما انسان كافكا فمصيره مرتبط بقوة عابثة ومجهولة والامور تجري وكأنها على ((مسرح اوكلوهوما الطبيعي)) ، ولا يستطيع ان يجد لجريته منطقا ولا ان يلتمس ((مشجبا)) يعلق عليه عجزه . ان المحامي يصارح جوزيف بأن القضية قد تصل الى مرحلة ((لا يكون فيها لأحد ان يقدم عونا حيث تعالجها محاكم لا يصل اليها احد ولا يكون في استطاعة المحامي الوصول الى المتهم ، ويعود الواحد منا في يوم من الايام الى البيت فيجد على المنضدة كل المذكرات التي الفها بجد ونشاط والتي وضع فيهااجمل الآمال قد اعيدت اليه ، لانها لا يصح ان ترفع الى المرحلة الجديدة التي وصلت اليها القضية، اعيدت اليه لانها اصبحت مجموعة من الاوراق التافهة ..)) (٢) .

وكارل روسمان يدرك تماما انه لا جدوى ((فان الحكم متعمد ومدبر منذ اللحظات الاولى من اول كلمة تفوه بها القاضي في ثورة غضبه وربما كان من الافضل له ان يغادر المكان ويرحل في الحال)) (٣) . لقد تهاوى كل شيء وانفصلت العلة عن المعلول واصبح على هذا المخلوق الجديد المسمى ((انسانا)) ان يواجه بنفسه هذا الكون المنبسط الفسيح وهذا هو سر قوته . ان انسان سوفوكليس سرعان ما يستسلم للالغاز التي يطرحها ابو الهول ويعتبر ذلك قدرا مقدرا ، اما الانسان المعاصر فلا يستسلم حتى يتحطم ، ولكنه لا يتحطم في هدوء وانما يقدم نفسه – كمسيح من نوع جديد – قربانا لمحاولة الكشف وربما الوصول الى سببية جديدة ، وهنا سر الجمال في المتهم والذي يدركه من يحسن الابصار على حد تعبير المحامي ، وهنا سر الجاذبية في شخصية كارل، فمع انه يقابل بالعداء وبفشل النصير الا اننا نحس اننا ازاء شيء متألق يجذب اليه ((العطشجن)) و((تيريز)) ومديرة الفندق ، وما ذلك الا لانه يحاول ويبشر بسلوك جديد ازاء العبثية والغربة .

ولكن الشكل في هذه الرواية لم يتحول الى مضمون ، بمعنى انه ظل وعاء تصب فيه هذه المفاهيم . ان ((جيزيله ليستر)) مثلا –وهي المانية الاصل كذلك (ولدت سنة ١٩٣٧) تروي روايتها ((الأفزام والعمالقة)) على لسان طفل مريض مصاب بالدودة الشريطية ، فيرى عالم الكبار عالما مضطربا مفككا هو حصيلة هؤلاء العواجيز والمشوهين والنهمين ، وحصيلة القمامة والكلاب والبقر والمدمنين والسكارى والمرضى ، عالم لا تجد فيه جمالا ولا نظاما ، ولكن نجاح المؤلفة – وهنا سر تفوقها في رأيي على كافكا – في ان الشكل عندها قد تحول الى مضمون فنحس اننا ازاء لوحة اتحد فيها الدال والمدلول ولسنا ازاء الفاظ تتخذ معبرا الى شيء . فلم تتمسك بالقوالب الجاهزة وانما قدمت لنا صورا هي فصول يرويها طفل يرى العالم في صورة ((كاريكاتورية)) ولا يتحقق من شيء ، وكل شيء يقدمه في صورة مشكوك فيها ، فالمكان نسبي فهو بمين كذا الذي يقع على شمال كذا ، والشخصيات غير محددة فالطفل يرى الناس على الكوبري فلا يختلفون في شيء عن هذا الظل الذي يبدو له على الجانب الاخر ، والناس لا يزيدون اهمية عن هذه الصورة المعلقة او عن هذه الدودة التي تزحف فوق ارض المطبخ والتي تسرف المؤلفة في وصف دقائقها وحركتها . ان عالمها الذي تقدمه عالم غريب فالاطفال يبدون في حالة وحشية يوقعون بالأم على الارض ويتآمرون على الأخ ، والعروس في ليلة عرسها يبدو كنمرة مفترسة وهي ترقص ، والامور وجهات نظر والاحداث تتحرك على مستويات .

ان كافكا يقف في منتصف الطريق ، فهو يستجيب لروح العصر في الاحساس بتفاهة الحياة وعدم جدواها ، ولكن القالب عنده لا يتعانق مع هذا ، فيجيء قالبا مستقرا مسلسلا يتحرك فوق امكنة واقعية ثابتة ، على طريقة الرمز الذي يتحد فيه الرامز والمرموز .

٢ – القصة :

في مستعمرة العقاب

قال الضابط للرائد وهو يرمق باعجاب الآلة التي كان يعرف كل جزء منها ((ان هذه الالة شيء بديع)) . وكان الرائد قد قبل من باب اللياقة دعوة الحاكم (القومندان) لكي يشاهد تنفيذ الحكم بالاعدام على جندي قد عصى رئيسه وسلك سلوكا مشينا معه . ولم يكن في تلك المستعمرة ما ينم عن كبير اهتمام بهذا الحكم ، فلا يوجد احد في ذلك الجب العميق المحاط بالصخور المكشوفة من كل جوانبه في هذا الوادي الرملي الصغير . ما عدا الضابط والرائد والرجل المحكوم عليه وهو مخلوق بوجه وشعر منكوش بليد المظهر واسع الفم . والجندي الذي امسك بسلسلة ثقيلة تضم سلاسل صغيرة تحيط بمعصم ورسغ وعنق السجين وقد تشابك بعض هذه السلاسل ببعض بوساطة حلقات متضامة . ولذلك قد بدا الرجل في سلاسلة ككلب مطيع يتركه صاحبه يتجول حوله في الوديان ، ولا يحتاج – حين يبدأ التنفيذ – الى اكثر من الصفير .

ولم يهتم الرائد كثيرا بالآلة وجعل يتجول وراء السجين من هنا وهناك بلامبالاة واضحة . في الوقت الذي انهمك الضابط فيه في الاجراءات الاخيرة ، فهو تارة يرخف اسفل الماكينة نحو الحفرة الارضية ، وتارة يرتقي سلما ليتفقد اجزاءها العليا ، وكان من الافضل ان تترك هذه الاعمال لميكانيكي ، ولكن الضابط اداها بحماسة بالغة، اما لانه يكن اعجابا موفوما على هذه الالة او لاسباب اخرى لا يستطيع معها ان يسند هذه الاعمال الى اي انسان اخر . واخيرا صاح وهو يهبط درجات السلم ((والآن كل شيء جاهز)) . وقد بدا عليه عرق خفيف وجعل يتنفس من فم واسع ، وحشر تحت بثيقة سترته الرسمية منديلي سيدات انيقين . وبدلا من ان يثير الرائد بعض الاستفسارات عن الالة كما كان يتوقع الضابط قال ((مؤكد ان هذه الملابس الرسمية ثقيلة وتحد من الحركة)) . فقال الضابط وهو يغسل يديه مما علق بهما من زيت وشحم في جرول ماء اعد لهذا الغرض ((بالطبع ، ولكنها في حكم المنزل بالنسبة لنا ونحن لا نتنكر لمنازلنا)) ، ثم اضاف بغتة وهو يجفف يديه في فوطة ويشير الى الالة ((والآن الق نظرة على هذه الالة ، لقد كان كل شيء يتم حتى الان يدويا ، اما من هذه اللحظة فهي ستعمل تلقائيا)) . فأومأ له الرائد وتبعه . ثم قال الضابط وهو يقيم لكل احتمال حسابا ((احيانا قد تأتي الاشياء على غير ما نحب . وأرجو الا يحدث خطأ اليوم ، وان كان للظروف احكامها . انها ستعمل باستمرار اثنتي عشرة ساعة ، فاذا حدث خلل فسيكون هينا ويمكن اصلاحه)) .

وأخيرا قال الضابط ((الا يمكن ان تأخذ مقعدا ؟)) ثم سحب كرسي خيزران من بين كومة كراسي وقدمه له فلم يستطع ان يرفضه ، وجلس الرائد على حافة قصيرة جعل يفتش فيها عن اللحظة الزائلة، لم تكن عميقة وقد تكونت على احد جانبيها التربة المنبوشة في شكل حاجز ، اما الجانب الاخر فقد ربضت فوقه الالة .

ثم قال الضابط ((لا ادري اذا كان الحاكم قد شرح لك عمل هذه الالة ؟)) ، فلوح الرائد بيديه علامة النفي ، وحينئذ لم يسأل الضابط

(١) امريكا ص ٢١٠ (روايات الهلال – اغسطس سنة ١٩٧٠) .

(٢) القضية ص ١٦٦

(٣) امريكا ص ٢٤٢

شيئا فهو في حل من ان يقوم بالشرح بنفسه فقال وقد امسك بمقبض «كرنك» واستند عليه «ان الحاكم الاول هو الذي اخترعها ، وقد كنت اساعده في تجاربه الاولى ثم قاسمته العمل في كل شيء حتى انهما، ولكن براءة الاختراع نسبت اليه وحده . هل سمعت شيئا عن حاكمنا الاول ؟ لم تسمع ؟ حسنا ، لا ابعد كثيرا لو قلت لك ان كل نظام هذه المستعمرة من صنع يده ، ونحن اصدقاء . ندرك تماما انه ترك كل شيء قبل ان يموت في غاية النظام ، لدرجة ان قدرنا ان خليفته الذي يعشش في رأسه الف مشروع جديد سيجد من المستحيل عليه ان يغير شيئا ما ، على الاقل لسنين كثيرة ، وتحقق تقديرنا فان الحاكم الجديد قد اضطر الى التسليم بهذه الحقيقة ، ولكن ...» . ثم قاطع نفسه وغير مجرى الحديث وقال «انا انتقل من مكان الى مكان ، وهنا نقيم هذه الآلة التي تتكون كما ترى من ثلاثة اجزاء ،وقد اكتسب كل جزء بمرور الوقت لقبا خاصا به ، فالجزء السفلي يطلق عليه «السرير» والجزء العلوي يطلق عليه «المهيمن» ، اما الجزء الوسط الذي يتحرك فوق وتحت فيطلق عليه «الجراف» ... » فسأل الرائد فجأة «الجراف ؟» فهو لم يكن يصغي بانتباه لان اشعة الشمس في ذلك الوادي المكشوف كانت تتسلط عليه بقوة فتمنعه من تجميع افكاره . وطيلة ذلك الوقت كان يعجب بالضابط الذي لم يحرمه معطفه السميك والمحكم ولا الشارات العسكرية التي يرزح تحتها من تقصب موضوعة بمثل هذه الحماسة ، ولم يمنعه الحديث من ان يربط بالمفتاح مسمارا هنا ومسمارا هناك . وبالنسبة للجندي فقد كان في الحالة نفسها التي عليها الرائد ، فهو قد لف سلسلة السجين حول معصميه واتكأ على بندقيته وتدلت رأسه ولم يكن مصغيا لاي شيء ، ولم يدهش الرائد لذلك لان الضابط كان يتكلم بالفرنسية التي لا يعرف كل من الجندي او السجين كلمة منها . ومن الجدير بالاهتمام ان السجين كان اقل من يبذل جهدا ليتبع شرح الضابط ، فكان ينظر الى حيث يشير بشيء من المحاولة الكسولة ، وحين يقاطع الرائد الشرح بأسئلته كان ينظر الى حيث ينظر الضابط .

فأجاب الضابط «نعم ، الجراف ، وهو اسم مناسب لها فابرها مثل اسنان الجراف وعملها يشبه عمل الجراف . مع انها لا تكون الا في مكان محدد ومصممة ببراعة اكثر . وعلى اي حال ستفهمها حالا. فهنا على السرير يرقد الرجل ، وانا مزمع ان اصف لك اجزاء الالة قبل ان ابدأ في ادارتها حتى تكون قادرا على تتبع العملية بفهم اكثر، وأحب ان انبهك الى ان واحدة من العجلات المشرشرة الموجودة داخل «المهيمن» مستهلكة ولذلك فهي تصدر صريفا (تزيق) اثناء عملها فتكاد لا تسمع صوتك وانت تتحدث . ولسوء الحظ فان الحصول على قطع الغيار هنا امر في منتهى الصعوبة . وهذا هو السرير كما قلت لك وهو مغطى تماما بطبقة من «الصوف والقطن» ستعرف فيما بعد فائدتها. ويرقد الرجل فوق هذه الطبقة على بطنه عاريا من كل شيء . وهنا اربطة ليديه واربطة لقدميه واربطة لرقبته حتى يمكن توثيقه باحكام. وتوجد ناحية رأس الرجل الذي يرقد على بطنه كما قلت لك شكيمة من «لباد» مهيأة لان تندفع الى فمه فتمنعه من الصياح ومن ان يعض لسانه . وهو لا يستطيع ان يرفضها لان رقبته مشدودة بالرباط .

وسأله الضابط وهو يميل الى امام «هل هذه من قطن وصوف ؟» فأجابه وهو يبتسم «بكل تأكيد تحسسها بنفسك» ثم امسك بيده ووضعها فوق السرير وقال « هي من قطن وصوف وهذا هو سبب الاختلاف الذي يبدو عليها وسأخبرك حالا عن فائدتها» . وفجأة تولد اهتمام عند الرائد بهذه الالة فرفع عينيه وسترهما من الشمس باحدى يديه وجعل يحملق فيها ، فرآها هيكلا ضخما ، ورأى السرير والمهيمن في حجم واحد ، وكانا اشبه بصندوقين من الخشب اسودين ، وقد ارتفع المهيمن فوق السرير بنحو مترين ، وشد كل منهما الى الاركان بأربعة قضبان من النحاس الاصفر أخذت تشع تحت الشمس ، وتحتهما يتحرك الجراف كالمكوك فوق شريط من الصلب .

ولم يلاحظ الضابط من قبل لامبالاة الرائد الا قليلا ، اما الان فقد لاحظ اهتمامه الجديد ومن ثم توقف عن الشرح قليلا ليترك له فرصة للتأمل . اما الرجل فجعل يقلد الرائد في حركاته وحين لم يستطع ان يستخدم مثله يده المربوطة ليتقي بها اشعة الشمس اكتفى بالنظر دون ساتر.

قال الرائد وهو يزيح كرسيه الى الخلف «جميل ، يرقد الرجل ...» فقال الضابط وهو يدفع قبعته قليلا الى الوراء ويحرر يده على وجهه الملتهب : «نعم ، والان اصغ الي ، يملك كل من السرير والمهيمن بطارية كهربائية ، السرير يحتاجها لنفسه والمهيمن يحتاجها من اجل الجراف ، فحالما يربط الرجل حتى يبدأ السرير في الحركة، يرتجف اولا لمدة دقيقة ثم يتذبذب بسرعة عظيمة من جنب الى جنب ومن فوق الى تحت . قد ترى آلات مشابهة لهذه في المستشفيات ، ولكن عندنا نرى ان حركة السرير محسوبة بدقة ومطابقة تماما لحركة الجراف وهو الاداة الفعلية لتنفيذ الحكم .

فسأل الرائد «ولكن كيف تجري المحاكمة ؟» .

فقال الضابط باندهاش وهو يعض شفتيه «الا تعرف ذلك ايضا؟ ولكن اعذرني اذا بدا شرحي مفككا ، ارجوك العفو فأنت تعرف ان الحاكم هو الذي يقوم عادة بالشرح ، ولكن الحاكم الجديد قد تنصل من هذا الواجب . ولكن ان يحدث مع زائر مهم» فرفع الرائد كلتا يديه خجلا ومع ذلك فقد واصل الضابط حديثه «ولكن ان يحدث مع زائر مهم فلا نخبره بنوع الحكم الذي ينفذ فهذا تطور جديد ، يعد...» وكان عند حد ان يستخدم لهجة حادة لولا ان كبح نفسه واكتفى بأن يقول «لم يخبرني احد وهذا ليس قصورا مني فأنا خير من يشرح اجراءاتنا ، فعندي التصميمات المناسبة التي قام بوضعها «حاكمنا الاول» ..» .

قال الرائد : «أهي من وضع الحاكم نفسه ؟ فهل هو عسكري او قاض او ميكانيكي او صيدلي او رسام ؟» .

فقال الضابط وهو يومىء بارتياح ويلقي نظرة رجاجية بعيدة : «حقا ، كان كل شيء» ثم فحص يديه فلم يجدهما في نظافة تكفي لان يلمس بهما التصميمات ، فتوجه الى الجرول وغسلهما للمرة الثانية. ثم سحب حقيبة جلدية صغيرة وقال «حكمنا لن يرد فالجراف يكتب على جسد الرجل العاصي لرئيسه الحكم المفروض عليه ، فهذا الرجل مثلا ..» واشار اليه «سوف يكتب على جسده» عظم رؤساءك» .. »

نظر الرائد الى الرجل الذي وقف حين اشار اليه الضابط ، فوجده منحني الرأس وبصفي بكل اذنيه ليلتقط كل ما يقال . ولكن تمتمة شفتيه المتورمتين وضغطه عليهما دلا على انه لم يفهم كلمة مما يقال . وكانت اسئلة كثيرة تراود ذهن الرائد ولكنه امام منظر هذا الرجل اكتفى بالقول «وهل يعرف نوع الحكم ؟» فاجابه «لا» ثم حاول ان يستمر في شرحه ولكن الرائد قاطعه «لا يعرف نوع الحكم الذي سينفذ عليه ؟» فاجابه للمرة الثانية « لا .. » ثم توقف لحظة ليعطي الرائد الفرصة لانقان صيغة السؤال ثم قال : «ليس ثمة فائدة في اخباره بالحكم وهو سيدركه عمليا على جسده» . وأزمع الرائد الا يسأل مرة اخرى ولكن نظرة من السجين ارتدت اليه فأحس انها تلتمس منه الاستمرار ، ومن ثم انحنى في كرسيه والقى بسؤال اخر: « ولكنه بالتأكيد يعرف انه قد حكم عليه ؟ » فقال الضابط وهو يبتسم ابتسامة من يتوقع اسئلة اكثر غرابة «ولا تلك ايضا» . فقال الرائد وهو يجفف جبهته «ولا تلك، اذن فهو لا يعرف نتيجة الدفاع عنه» فقال الضابط وهو يدير عينيه ، وكأنه يتحدث الى نفسه ليوفر على الرائد الاحساس بالخجل من شرح هذه الامور البديهية : «ولكنه لا يعطى الفرصة ليقيم دفاعا» . فقال الرائد وقد نهض من الكرسي «ولكن يجب ان يعطى الفرصة ليدافع عن نفسه» .

وأحس الضابط انه مهدد في شرحه لو توقف عن ذلك كثيرا ، ومن ثم توجه الى الرائد وأمسك بذراعه ولوح نحو الرجل الذي وقف في تلك اللحظة معتدلا لانه اصبح مركز الاهتمام ، ثم قال والجندي يهز السلسلة «سأشرح لك تفصيلات الموضوع ، لقد عينت قاضيا في تلك المستعمرة على الرغم من حداثتي ، لانني كنت مساعد «الحاكم الاول» في كل الامور القانونية ، فعرفت عن هذه الالة اكثر مما يعرفه اي انسان اخر . والقاعدة التي استرشد بها في احكامي هي ان « الذنب لا يشك فيه » . ان المحاكم الاخرى لا تسير على هذه القاعدة لتعدد وجهات النظر ولوجود محاكم عليا تتحرى بعدهم ، والحالة هنا تختلف عن ذلك وعلى الاقل في عصر الحاكم الاول . وقد بدت من الرجل الجديد محاولة للتدخل في قضاياي ، ولكنني نجحت في ايقافه عند حده وسأنجح في ذلك باستمرار ، وأنت تريد ان اشرح لك هذه الحالة وهي في غاية السهولة ككل الحالات الاخرى . فقد ابلغني «النقيب» في ذلك الصباح ان هذا الرجل المخصص كخادم وكحارس يرقد امام الباب قد تغافل عما يجب ان ينتبه له ، وقد كان عليه ان يستيقظ كلما تدق الساعة ويؤدي السلام لباب النقيب ، وقد اراد النقيب في الليلة الماضية ان يختبر الرجل ، ففتح الباب وكانت الساعة تدق دقتين فوجده قد تكور نائما ، فتناول سوطا وجعل يلطمه على وجهه ، وبدلا من ان ينهض ويلتمس السماح اذا به يقبض على رجل سيده ويهزه وهو يصيح «اق بهذا السوط بعيدا والا ابتلعتك حيا» . هذا هو الموضوع وقد حضر النقيب منذ ساعة فدونت حالته وارفقت بها الحكم ، ثم وضعت الرجل في السلاسل ، وذلك كل ما هنالك بمنتهى البساطة . فلو استحضرت الرجل امامي وسألته فسيدلي اليك بأشياء مشوشة وغامضة بل سيدلي بالاكاذيب وسأضطر الى مناقضة فيؤيدها باكاذيب اخرى وهكذا وهكذا . والواقع انني قد تمكنت منه ولن ادعه يفلت . هل هذا واضح الان ؟ ولكننا نضيع وقتنا والحكم قد أزف ولم انته بعد من شرح الآلة ». ثم دفع الرائد نحو كرسيه وصعد الالة للمرة الثانية وابتدأ يقول : «وكما ترى فشكل الجراف مطابق لشكل الانسان ، فهذا الجزء مطابق للجذع ، وهذان مطابقان للساقين ، اما هذا المسمار الصغير فهو مطابق للرأس، اذلك واضح بما فيه الكفاية ؟ » ثم مال نحو الرائد بود وهو متحمس لاعداد شرح واف .

نظر الرائد نحو الجراف بعبوس فقد ساءته هذه الاجراءات القانونية ، ثم اقنع نفسه بأن هذه مستعمرة للعقاب حيث يلجأ فيها للمعايير غير العادية ويسود فيها النظام العسكري . ولكنه احس بشيء من الامل في الحاكم الجديد ، فمن الواضح انه سيقدم ـ وان كان تدريجيا ـ نوعا جديدا من الاجراءات يعجز ذهن الضابط الضيق عن فهمها . وقد اوحى اليه هذا الامل بالسؤال الاتي «هل سيحضر الحاكم هذا الاعدام ؟» فقال وقد فرغ من هذا السؤال المباشر واختفى من وجهه تعبير المودة «ليس هذا مؤكدا . ولا يجب ان نضيع وقتا، فابغض شيء الي هو ان اضطر الى قطع شرحي ولو قليلا . وغدا حين تنظف الالة يمكن بالطبع ان اذكر لك كل التفصيلات وان كان من العيب ان تترك مشوشة . اما الان فنقتصر على النقاط الجوهرية ، حين يرقد الرجل على السرير الذي يبدأ في التذبذب فان الجراف ينزل نحو جسده ، وهو معد « اوتوماتيكيا » في ان تمس ابره الجسد حتى يتعرض الشريط المصنوع من الصلب داخل العظام وتبدأ المهمة في الانجاز ، وقد لا يدرك الغبي اختلافا ما بين عقاب وعقاب ، فالجراف يؤدي عمله في الظاهر بنظام رسمي ، فهو يهتز وتخترق أسنته الجسد الذي يهتز ايضا بسبب ذبذبة السرير . والتقدم الفعلي في عملية الحكم يمكن ان تلاحظ لان الجراف مصنوع من الزجاج . وقد قابلتنا مشكلة فنية وهي تثبيت الابر في الزجاج . ولكن بعد تجارب كثيرة امكن التغلب عليها ، ولا تقابلنا الان كما ترى متاعب عظيمة فأي شخص يستطيع الان ان ينظر من خلال الزجاج ويشاهد عملية الحفر على الجسد . الا يمكن ان تقترب قليلا وتنظر الى الابر ؟» .

فنهض الرائد بتثاقل وتوجه اليه ثم انحنى نحو الجراف فقال الضابط «ها انت ذا ترى نوعين من الابر مرتبين في نماذج متعددة ، وكل ابرة طويلة تحوي ابرة قصيرة بداخلها ، وتقوم الابر الطويلة بعملية الكتابة ! اما الابر الصغيرة فهي ترش رذاذا من الماء يزيل الدماء ويوضح الكتابة . وهنا في تلك القناة الصغيرة تتجمع الدماء والمياه لتصب في تلك القناة الرئيسية ثم تتصرف نحو المقبرة من خلال «ماسورة» الفضلات» . ثم تتبع بأصبعه الاثر الذي خلفه خليط الدماء والمياه بل لكي يجعل الصورة اكثر وضوحا دفع بكلتا يديه الى فوهة الماسورة وكأنه يحاول ان يصل الى نهايتها . وعند هذا الحد التفت الرائد خلفه وحاول ان يعود الى كرسيه ولكنه احس بشيء وراءه فاكتشف جزعا ان المحكوم عليه قد تبعه حين لبى دعوة الضابط لفحص الالة عن قرب ، بعد ان جذب الشرطي النائم من السلسلة وانحنى مثله نحو الزجاج ، وكان واضحا من عينيه الحائرتين انه يحاول ان يفهم شيئا مما ينظر اليه هذان السيدان ومع ذلك فهو لم يفهم من الشرح رأسا من عقب . واراد الرائد ان يطرده حتى لا يرتكب ما قد يؤاخذ عليه ، ولكن الضابط باشارة حازمة من يده اوقفه بينما تناول باليد الاخرى قليلا من تراب السد الموجود فوق المقبرة وقذف به الجندي ، الذي بربش بعينيه فرأى ما ارتكبه الرجل ، فاسقط بندقيته ، وتشبث بأقدامه في الارض ثم جبذ السجين جبذة جعلته يتعثر ثم ينكفىء . ثم اعتدل الجندي وجعل ينظر اليه ويتأمله وهو يتخبط ويجلجل في سلاسله . ولكن الضابط حين لاحظ اهتمام الرائد بالرجل زأر في الجندي «دعه يقف على قدميه» . والحقيقة ان الرائد لم يكن يلقى بالا الى كل ما يقال عن الجراف لانه كان مشغولا بأمر هذا الرجل . ثم صاح الضابط مرة ثانية في الجندي «كن لطيفا معه» ، بل انه استدار حول الالة وامسك بالرجل من كتفيه وهو يحاول بمعونة الجندي ان يوقفه على قدميه وكانتا تهتزان من تحته .

قال الرائد للضابط وهو يريد ان يكمل شرحه : «لا ، فأنا اعرف كل شيء عنها» . فأجابه «كل شيء ما عدا اهم شيء» ثم قبض على ذراعه وأشار الى اعلى «في هذا المهيمن» توجد كل العجلات المسننة التي تدير «الجراف» الذي يرتب على حسب نوع الكتابة التي تتطلبها القضية ، وما زلت استرشد بالخطط التي وضعها «الحاكم الاول» ، وها هي تلك ..» ثم استخرج بعض الاوراق من الحقيبة الجلدية وقال «ولكنني آسف فلن ادعك تلمسها فهي أثمن ما املك اجلس وسأنشرها امامك هكذا وبذلك تستطيع ان ترى كل شيء بوضوح» . ثم بسط الورقة الاولى ، وأحب الرائد ان يبدي بعض الاستحسان ، ولكن كل ما استطاع ان يراه هو متاهة من الخطوط التي يقاطع بعضها بعضا والتي غطت الورقة كلها بكثافة شديدة تجعل من الصعب رؤية الفراغ الابيض بين الخطوط ، ثم قال الضابط « اقرأ » فاجابه «لا استطيع» فقال « ولكنها واضحة بما فيه الكفاية » فاجابه وهو يراوغ « هي في غاية الاتقان ولكن لا اقدر على حلها» فضحك الضابط وقال وهو يعيد الورقة الى مكانها «انها لا تعلم للاطفال في المدارس فهي تحتاج الى دقة ولكنك ستفهمها في النهاية . والحفر على الجسد ليس بالطبع شيئا سهلا ، فالالة لا تقضي على الرجل دفعة واحدة بل في فترة تبلغ في المتوسط اثنتي عشرة ساعة . وتبدأ مرحلة العودة في الساعة السادسة . ويجب ان ترش كميات من المساحيق حول مكان الحفر الفعلي الذي لا يشغل الا منطقة صغيرة ، اما بقية الجسد فتظل في هيئة سليمة . استطيع بعد ذلك ان تقدر قيمة العمل الذي يقوم به الجراف والالة على وجه العموم ؟ والان انظر ! » ثم صعد السلم وادار عجلة وصاح وهو ينظر اسفل «انتبه والزم جانبا واحدا» وبدأ كل شيء يعمل باحكام ما عدا العجلة التي كانت « تزيق » ، وقد ضاق

الضابط بضجتها فهز نحوها قبضة يده ثم فرد ذراعيه ليعتذر للرائد وهبط من السلم مرة ثانية وعبث بكلتا يديه داخل المهيمن ثم تزحلق الى اسفل على احد القضبان بدلا من السلم توفيرا للوقت ، وزعق بملء رئتيه حتى يستطيع الرائد ان يسمعه خلال الضجة» «أتستطيع ان تتبعها . ها قد بدأ الجراف يكتب ، وحين يكمل السطر الاول على الظهر فان طبقة القطن والصوف تأخذ في التدحرج لتنقل الجسم ببطء وتتيح للجراف فراغا جديدا يكتب عليه . ويرقد الجزء المسلوخ من الكتابة على طبقة القطن والصوف فتوقف النزيف وتعد لحفر جديد . اما هذه السنان الموجودة على حافة الجراف فانها ـ حين يطرح الجسد بعيدا ـ تنزع القطن من الجروح وتلقي به الى المقبرة، فهناك اكثر من عمل للجراف ، وهكذا يستمر في الكتابة متعمقا اكثر واكثر طيلة اثنتي عشرة ساعة ، وفي الساعات الست الاولى يظل الرجل حيا كما كان من قبل وكل ما هنالك انه يعاني من الالام فقط. وبعد ساعتين تنزع «شكيمة اللباد» فلم تعد لديه القدرة على الصراخ. ويصب بعض من «الارزبلين» الدافىء على هذا الحوض المحمى كهربائيا والموجود ناحية الرأس . ويستطيع الشخص لو اراد ان يلعق منه بما يقدر . ولا اذكر على قدر ما رأيت من حالات كثيرة ان احدا منهم قد اضاع هذه الفرصة . وكل ما هنالك ان الرجل في حوالي الساعة السادسة يفقد كل رغبته في الاكل . وفي ذلك الوقت اعتدت ان اجلس على ركبتي والاحظ هذا المنظر فان الرجل نادرا ما يبلغ لقمته الاخيرة، بل انه يدحرجها حول فمه ثم يبصقها نحو المقبرة ولكن لا بد من ان اميل رأسه والا بصق في وجهي ساعتئذ . وما اعظم السكينة التي تغشاه ، ففي تلك الساعة تضيء اشد الوجوه قتامة ، يبدأ النور حول عينيه ثم يتسع الى كل ناحية . ويخيل للانسان آنذاك بان يلقي بنفسه معه تحت الجراف ولن يحدث شيء كثير بعد ذلك فان الرجل يبدأ في فهم الحفر ، فيكرمش فمه كما لو كان يصغي . وقد رأيت الصعوبة البالغة في ان يفسر الشخص الكفاية بعينيه فكيف ورجلنا يفسرها بجروحه . ومن المؤكد ان هذا امر صعب يحتاج الى ست ساعات لينتهي منه . ولكن في تلك اللحظة يجهز عليه الجراف ثم يطرحه نحو المقبرة . فيتقلب على الدماء والماء والقطن والصوف . وبذلك يكون الحكم قد تم ، ثم ندفنه انا والجندي» .

وأسلم الرائد اذنيه للضابط ، ولاحظ ـ ويداه في جيوبه ـ الالة وهي تعمل ، وكذلك كان الرجل يلاحظها ولكن من غير ان يفهم شيئا. وبينما هو يميل الى الامام ويحملق في الابر المتحركة ، اذا بالجندي ـ باشارة من الضابط ـ يمرق بسكين قميصه وبنطلونه من الخلف . فتساقطت ملابسه وحاول ان يتشبث بها ليستر عريه ، ولكن الجندي منعه وخلع عنه بقية ملابسه . ثم اوقف الضابط الالة وفي صمت مفاجىء وضع الرجل تحت الجراف وانتزعت منه السلاسل فخيل له في اول الامر ان لحظة الخلاص قد دنت ، ولكنه لف بالاربطة بدلا من ذلك ، وهبط الجراف عن موضعه قليلا لان الرجل كان نحيفا . وحين مسته اسنان الابر اقشعر بدنه وجعل يخبط بيده اليسرى في الاتجاه الذي يقف فيه الرائد ، بينما انهمك الجندي في توثيق يده اليمنى. وكان الضابط يلاحظ الرائد من طرف خفي ليقرأ على وجهه اثر العملية التي شرحت له من قبل بطريقة سريعة .

وحدث ان كسر رباط المعصم لان الجندي شده بقوة ،فتدخل الضابط ، وامسك الجندي بقطعة مكسورة منه وأراها له ، فتوجه اليه ووجهه ما زال متجها نحو الرائد » ان هذه الآلة معقدة جدا فدائما تكسر الاشياء او تطوح بها هنا وهناك . ولكن الواحد منا لا يسمح لامر ما ان يصرفه عن تنفيذ الحكم . وعلى اي فهذا امر يمكن حله بسهولة فبكل بساطة سأستخدم السلسلة وان كانت ستؤثر على درجة الاهتزاز فوق الذراع الايمن » ثم اضاف وهو يربط السلسلة « بان الموارد التي تعتمد لصيانة الآلة شحيحة جدا هذه الايام . وقد كان لي ايام الحاكم الاول مطلق الحرية في ان اضيف كمية من المال توقف كلية على هذا الفرض . وايضا كان هناك مخزن توضع فيه قطع الغيار المطلوبة لكل الاصلاحات ، واعترف انني قد بددت الكثير منه . اعني في الماضي وليس الآن لان الحاكم الجديد يتعلل بأية ثغرة يجدها فيهاجم طرقنا القديمة في تصريف الامور بل انه قد اشرف بنفسه على العهد ، فاذا انا طلبت رباطا جديدا فسيسألون عن الرباط القديم المكسور كدليل ، وستمضي عشرة ايام حتى يأتي الرباط الجديد ، وحينئذ يكون قد اصبح شيئا باليا ولا يجدي فتيلا . ولكن كيف يتوقع مني ان أقوم بالعمل دون رباط ، ان هذا الامر لا يهمهم في شيء » .

وحدث الرائد نفسه ، بان التدخل والبت في شئون الآخرين امر يثير القلقلة دائما . فهو ليس فردا من أفراد هذه المستعمرة وليس من مواطني الولاية التي تتبعها . فلو شهر بهذا الاعدام او حاول ان يوقفه فمن الممكن ان يقولوا له « انت غريب فاهتم بما يخصك » وحينئذ لا يستطيع ان يرد عليهم بشيء ، ولماذا يشغل نفسه بامر هذا الاعدام وهو لم يأت هنا الا بغرض المشاهدة لا بغرض تغيير طرق الآخرين في تنفيذ القوانين . ولكنه يجد نفسه في موقف حرج للغاية، فعدم شرعية الاجراءات واللاانسانية في تنفيذ الحكم امران لا يمكن ان ينكرا ، ثم لا يمكن ان يتهمه احد بغرض شخصي في هذا الموضوع فالرجل غريب عنه وليس من مواطنيه ولا تربطه به علاقة ما . ثم ان عنده توصيات من جهات عليا قد قوبلت هنا بترحيب عظيم وهم الذين قد وجهوا اليه الدعوة ومن ثم سيرحبون بوجهة نظره وخاصة ان الحاكم ـ كما قد سمع بوضوح ـ لا يستصوب هذه الاجراءات ويصر على موقفه المعادي للضابط .

وعند هذا الحد سمع الرائد الضابط يزعق في غضب .لان الرجل لم يستطع ان يقاوم نوبة من الغثيان حين دفع من فمه الشكيمة بقوة ، فاقفل عينيه وتقيأ . وقد حاول ان يبعد الشكيمة عنه ويميل رأسه نحو المقبرة ، ولكن الوقت فات فان القيء قد سال على الآلة ، وقال الضابط وهو يهز القضبان النحاسية دون ان يشعر نفسه « هذه هي غلطة الحاكم، فقد اصبحت الآلة قذرة كزريبة الخنازير » واوضح للرائد ما قد حدث ويداه ترتعشان » الم احاول لساعات كثيرة ان اجعل الحاكم يفهم انه من الواجب ان يصوم السجين طيلة اليوم السابق على تنفيذ الحكم ؟ ولكن مبدأنا الجديد الرحيم يؤمن بعكس ذلك فان سيدات الحاكم قد حشون فمه بسكر النبات قبل ان يرقد هنا ، لقد عاش طيلة حياته يتغذى على السمك المنتن والآن يفرط في تناول السكر ! ولكن الذي لا استطيع ان افهمه هو لماذا لا يعطونني الشبكة الجديدة التي قد طلبتها منذ ثلاثة شهور ؟ كيف لا يشعر انسان ما بالغثيان حين يتناول شكيمة قد بصق عليها من قبله اكثر من الف رجل وجعلوا يقرضونها في ساعة احتضارهم ؟ » .

وخفض المحكوم عليه رأسه وبدا مستسلما ، وانشغل الجندي في تنظيف الآلة ، اما الضابط فقد تقدم نحو الرائد الذي تراجع خطوة الى الوراء تحت شعور غامض . ولكن الضابط امسكه وانتحى به جانبا وهو يقول « اطمع في ان اتبادل معك سرا بضع كلمات هل تسمح ؟» فاجابه « بالطبع » ثم أصغى بعيون كسيرة .

قال له « ان هذه الطريقة في تنفيذ الحكم ـ وعندك الفرصة لتبدي اعجابك بها ـ لا تجد من يعلن تأييده لها . وانا الممثل الوحيد لها ولتقاليد الحاكم القديم ، ولم أعد أطمع في انتشار واسع لها وكل جهدي موجه لان تبقى كما هي . وكانت المستعمرة ممتلئة على ايام الحاكم القديم لمشايعيه بسبب قوة اقناعه التي بقي لي منها شيء ولكن لا يمكن ان اصل الى ذروته القوية . ولهذا فان المشايعين قد تواروا عن الظهور ، حقا لا يزال الكثير منهم موجودا ولكن لا يريد ان يظهر اعجابه ، فلو أنك ذهبت الى المقهى اليوم واصغيت الى ما يقال ، فلعلك تسمع تعليقات غامضة صادرة من مشايعينا ولكن تحت النفوذ الجديد والمعتقدات الحالية لا تجدي لنا شيئا . والآن اسألك سؤالا : ابسبب

هذا الحاكم وبسبب نسائه اللائي استأثرت به نلغي جزءا من العمل هو كل حياتنا ؟ لا يحق لانسان ان يترك هذا يحدث حتى لو كان غريبا يزور جزيرتنا لبضعةايام فقط أليس كذلك ؟ ولا وقت عندناالآن لنضيعه فان الخطر محدق بوظيفتي كقاض . فالمؤتمرات تعقد في مكتب الحاكم من غير ان احضرها ، بل ان مجيئك الى هنا امر له معناه فهم من الجبن بحيث يتسترون وراءك انت ايها الرجل الغريب . ما أبعد هذا عن طريقة الاعدام في الايام الماضية ! فقبل الاحتفال يحتشد الوادي بالخلق الذين ما جاءوا الا لالقاء نظرة ،وفي الصباح الباكر يظهرالحاكم ومعه زوجاته ، ويوقظ النفير جميع من في المعسكر ، ثم اعلن انكل شيء على اهبة الاستعداد ، وينتشر الموظفون جميعهم حول الآلة ولا يتغيب منهم شخصا مهما كانت رتبته . وكومة الكراسي هذه التي انت تراها بقية باقية من ذلك العهد . ثم تنظف الماكينة من جديد حتى تلمع ، وخاصة ان عندي الكثير من قطع الغيار مما يلزم لاي شيء . ويتقدم الحاكم فيضع الرجل بنفسه تحت الجراف امام مئاتالمتفرجين الذين يقفون بفارغ الصبر ويملئون الوادي حتى ذلك المرتفع . وما يؤديه الآن ذلك الجندي العادي كنت اؤديه انا القاضي الاعلى وكان ذلك يزيدني شرفا . وناهيك حين يبدأ التنفيذ اذ لا ضجيج ولاعجيج مما يمكن ان يؤثر على عمل الآلة . ولا يجسر أحد ان ينظر اليها بل يغمضون عيونهم وينظرون الى الرمال ، فهم قد عرفوا ان العدالةتأخذ مجراها ، والصمت يملأ المكان ما عدا تأوهات الرجل الذي ينفلت نصفها من خلال الشكيمة . اما في هذه الايام فان الماكينة لا تنتزع من أحد آهة ما الا وقد اخمدتها الشكيمة وفي تلك الايام الخوالي كانت الابر التي تقوم بعملية الكتابة تسقط سائلا حمضيا لا يسمح به في هذه الايام . وناهيك حين تأتي الساعة السادسة ! اذ من المستحيل انتلبى جميع الطلبات التيتلتمس الاذن بالتفرج عن قرب . ولكن الحاكم لبعد نظره امر بأن تكون الاولوية للاطفال . وقد كان من حقي بحكم وظيفتي ان أكون دائما عن قرب . وغالبا ما كنت اكتفي بالجلوس هناك ممسكا بطفل صغير من أحد ذراعيه ،آه لقد كنا جميعا ننهمك في رؤية التعبير على وجه المعذب وكنا نغرق حتى آذاننا فياشعاعات العدالة التي انتهى امرها اخيرا . انها ايام لا تعوض يا رفيقي!» .

وكان من الواضح ان الضابط قد لسن مع من يتحدث اذ احتضن الرائد واسند رأسه فوق كتفه ، فارتبك الرائد كثيرا ثم رفع متضجرا رأسه ، وكان الجنديقد انتهى من تنظيف الآلة واخذ يصب في الحوض « الارزبلين » وما ان رأى الرجل ذلك ـ وقد بدا أنه افاق تماما ـ حتى مد لسانه . ولكن الجندي منعه فما زالت هناك ساعة على حلول الموعد ، وان كان لا يليقبه ان يستخرج بيديه القذرتين من الحوض ما يأكله امام منظر الرجل الشره .

وافاق الضابط لنفسه بسرعة وقال للرائد « لا اريد ان اغيرك فانا اعرف انه من المستحيل ان تجعل احدا ما يصدق هذه الايام الماضية ، والمهم ان الآلة ما زالت تعمل وتؤثر تلقائيا مع انها تقف وحيدة في هذا الوادي ، وما زال الجثمان يسقط في نهاية الامرفي المقبرة وبحركة سريعة لا تدرك دون ان يحتشد حولها مئات من المتفرجين كتشكيلات الذباب مما اضطرنا ان نقيم سورا قويا حول المقبرة وقد هدم منذ وقت طويل » .

وادار الرائد وجهه بعيدا عن الضابط وجعل يتلفت حوله جرافا، فخيل للضابط انه ينظر الى الوحشة التي تملأ الوادي ، فامسكبيديه واداره نحوه لكي يلتفت في عينيه وهو يقول « الا تلاحظ في عيني الخجل من ذلك ؟ » .

فلم يجبه بشيء ، فتركه الضابط وحيدا لمدة قليلة ووقف ساكنا كل السكوت يحملق في الارض ورجلاه منفصلتان ويداه فوق جذعه،ثم ابتسم وقال مشجعا !« لقد كنت قريبا منك بالامس وسمعت الحاكم يعطيك الدعوة ، انا اعرف الحاكم وقد صدقت تنبوءاتي نحوه . فمع انه يستطيع ان يتخذ اي اجراء ضدي الا انه لم يجسر على ذلك .وبكل تأكيد هو يريد ان يستخدم رأيك ضدي . كرأي صادر من شخصغريب ومثقف ، وهو سيمهد له بكل دقة قائلا : هذا هو اليوم الثاني لك على جزيرتنا ، وأنت لا تعرف الحاكم القديم ولا طرفه ، فقد تكيفت بالطرق الاوروبية في التفكير ، فلعلك تستطيع ان تضع قانونا للعقوبات الكبرى بوجه عام وللعقوبات بهذه الآلات بنوع خاص ، وبجانب ذلك فقد رأيت ان تلك الطريقة لا تجد تأييدا لها من الجمهور . فهو مجرد احتشد صغير يتناسب مع ما تؤديه آلة قديمة وبالية . والآن ضع كل هذا في الاعتبار الا يكون من المحتمل كما يظن الحاكم) انك تدين طريقتي . واذا ادنتها فلن تفعل غير الحقيقة (ما زلت اتكلم من وجهة نظر الحاكم) كشخص يحترم استنتاجاته الخاصة والتيتؤدي الى الصواب ، اليس كذلك ؟ ولكن من المحتمل انك لا تتخذ موقفا معاديا ضد هذه الاجراءات كما قد تفعل في بلدك ، فانت من الحكمة ما يدفعك الى ان تقدر خصائص الآخرين احسن تقدير . ولكن الحاكم لا يهتم بذلك ، فحتى الملاحظة المعارضة كافية عنده ليستخدمها من اجل غرضه وليس بالضرورة ان تكون مطابقة لما قد فكرت فيه كثيرا . بل انني متأكد انه سيوحي اليك بغرضه من خلال اسئلة خبيثة ، بينما زوجاته يحطن بك ويرهفن آذانهن ، وحينئذ قد تقول شيئا مثل هذا « لدينا في بلدنا طريقة مختلفة عن ذلك في تنفيذ العدالة » او « في بلدنا يعطى السجين فرصة للدفاع عن نفسه » او « نحن لا نستعمل طرق التعذيب منذ العصور الوسطى ». فكل هذه العبارات التي تبدو لك حقيقية وطبيعية لن تمر بخيرعليّ. ولكن كيف سيستغلها الحاكم ؟انني اتصوره ، أتصور حاكمنا العظيم قد دفع بكرسيه الى الوراء واسند على الشرفة . وتدفقت النساء حوله ، ثم اسمع صوته ـ الذي يطلقن عليه صوت الرعد ـ وهو يقول شيئا كهذا « ان خبيرا اوروبيا مشهورا ومعروفا بدراسة الاجراءات الجنائية في كل بلدان العالم قد قال لتوه ان تقاليدنا القديمة في تنفيذ العدالة غير انسانية ، وان رأيا كهذا يجعل من المستحيل علي ان امضي في تأييد هذه الطرق ، ولذلك فابتداء من هذا اليوم بالذات اقرر الغاءها » ولعلك تريد ان تعارضه بانك لم تقل شيئا كهذا على الاطلاق ولم يصف طرقي بانها غير انسانية ، بل على العكس فانالتجربة المدققة قد دلت على انها اكثر انسانية وملاءمة للكرامة البشرية وانك معجب بهذه الآلة . ولكن كل هذا سيجيء متأخرا جدا ،فلن تستطيع حتى ان تصل الى الشرفة المزدحمة كعادتها بالنساء ، وقد تحاول ان تلفت النظر او ربما تريد ان تصبح ، ولكن بدا من احداهن ستقفل شفتيك ، ثم اهلك أنا والحاكم القديم » .

وكبت الرائد ابتسامة فالمهمة التي قد بدت له سهلة اصبحتهكذا صعبة ثم قال بمراوغة « انك تبالغ في تقدير نفوذي ،وقد قرأ الحاكم التوصية وعرف انني لست متخصصا في الاجراءات الجنائية ، واذا ابديت رأيا فلن يزيد عن رأي شخصيلا يختلف عن رأي اي فرد عادي . وعلى اي حال فلن يكون اكثر تأثيرا من نفوذ الحاكم الذي يملك ـ كما قد فهمت ـ سلطة لاحد لها من هذه القلعة . واذا كانت وجهة نظره كما يخيل لي هي المعاداة التامة لاجراءاتك فالذي أخشاه ان نهايتها قد دنت دون ان تفيدك خدماتي المتواضعة » .

فهل اقتنع الضابط بذلك اخيرا ؟ كلا لم يقتنع . بل هز رأسه بشدة ، والقى نظرة سريعة نحو الرجل والجندي فابتعدا عن الارز ثم اقترب من الرائد وقال له بصوت منخفضا عن ذي قبل ودون انينظر الى وجهه بل تعلقت عيناه ببقعة على معطفه « انك لا تعرف الحاكمفانت تشعر ـ ومعذرة في هذا التعبير ـ انك رجل غريب وبعيد عن كل ما يخصنا ، ولكن صدقني فان نفوذك لا يقدر بثمن . وقد سعدت للغاية حين سمعت انك ستحضر العملية بنفسك ، لقد اعد الحاكم ذلك لكي يوجه ضربة لي ولكن سأردها عليه انتقاما منه . وها أنت

قد سمعت شرحي ورأيت الآلة وستشاهد في التو العملية دون تأثير من صغير كاذب او من نظرات الازدراء التي لا يمكن تفاديها في حضرة مجموعة من المتفرجين . فبكل تأكيد قد كونت حكمك واذا كان لديك بعض الشكوك الخفيفة فان منظر العملية سيبددها . والآن التمس منك ان تساعدني ضد الحاكم » . فصاح فيه الرائد مقاطعا وكيف استطيع ان افعل ذلك ؟ فهو مستحيل كل الاستحالة ، فلن اساعدك ولن اقف ضدك » . فقال الضابط :« نعم تستطيع » .

ثم لاحظ الرائد بشيء من الخوف وفد كور قبضتيه وكرر قوله وهو ما يزال اكثر تصميما « نعم نستطيع فعندي خطة مضمونة النجاح ،انت تعتقد ان تأثيرك قليل وأنا أعتقد العكس ، ولكن فلنفترض انك على صواب افلا يكون من الضروري ـ حفاظا على هذا التقليد ـ ان تبذل هذا القليل ؟ واذن فلتصغ الى خطتي . ان اول شيء يجب ان تلتزم به هو ان تتحفظ الى اقصى حد في آرائك نحو هذه الاجراءات. فحتى لو سئلت سؤالا مباشرا فلا يجب انتقول شيئا على الاطلاق . واذا اضطررت فليكن كلامك مقتضبا وعاما بحيث يفهمون انك لا تحب مناقشة هذا الموضوع وأن صبرك لا يحتمل الخوض فيه . واذا حملوك على ذلك فاستخدم لغة جافة ، انا لا اريدك ان تكذب بل ان تعطي اجوبة مقتضبة لا تحمل معاني محددة مثل «نعم قد رأيتها» او «نعم قد شرحت لي» لا اكثر من ذلك . وهناك طرق كثيرة يمكن ان تنم عنضجرك مع انها لا تبدو كذلك للحاكم لانه سيتخطى قصدك ويؤولها لمصلحته . هذا ما تعتمد عليه خطتي . وغدا سيعقد مؤتمر لكبار الموظفين في مكتب الحاكم وتحت رئاسته ، وبالطبع سيحوله الى مشهد عام في ارض المعرض التي ستعبأ بالمتفرجين ، وسأضطر الى المساهمة فيه وان كان هذا يصيبني بالغثيان وأنت بلا شك ستدعى اليه فلو تصرفت على حسب ما اقترحت فستكون الدعوة حينئذ هي غاية المطلوب ، واذا لم توجه اليك الدعوة لسبب ما فيجب ان نطلبها وستحصل عليها بلا شك.

وهكذا ستجد نفسك غدا في قاعة الحاكم وسيعيد النظر حتى يتأكد من وجودك . ثم يقدم للمستمعين بعد امور تافهة وسخيفة جدول المناقشة ـوسيكون غالبا حول اعمال الميناء ولا شيء الا اعمال الميناء ـ ثم يأتي دور اجراءاتنا القانونية ، واذا لم يعرضها الحاكم او رؤي تأجيلها فسأطالب بذكرها ، وسأقف واعلن ان اعدام اليوم لم يكنعليه غبار فقد كان حالة واحدة وتمت بسرعة ، وهي حقا لم تكن حالة عادية ولكنني تغلبت عليها ، ثم يشكرني الحاكم ـكما هي عادتهـ بابتسامة ظريفة ، ولكنه لا يستطيع ان يكبح نفسه فيمسك بالفرصة السانحة ويقول «قد اعلنت ان حالة اليوم لم يكن عليها غبار ، وأحب ان اضيف ان الخبير الشهير قد شاهد هذه الحالة ، وهو ـكما نعرفـ قد شرف مستعمرتنا بصفة استثنائية بزيارته لنا . ثم ان حضوره جلسة اليوم ايضا يعطي لهذه المناسبة اهمية خاصة . الا يمكن ان نسأل الخبير الشهير عن رأيه في طرقنا المتبعة في تنفيذ الاعدام وعمل الاجراءات التي تؤدي اليها» . وبالطبع سيكون هناك استحسان كبير وموافقة بالاجماع وسأكون انا اشدهم حماسة . ثم ينحني نحوك الحاكم ويقول «باسم الاعضاء المجتمعين اوجه اليك بعض الاسئلة» . وحينئذ ستقف وتتقدم نحوه ، ضع يديك حيث يراها الجميع والا فان السيدات سيمسكنها وتضغطن على اصابعك . وأخيرا ستتكلم . لا استطيع ان اتحمل قلق انتظار هذه اللحظة . لا تضع اية ضوابط على نفسك وانت تتكلم فأعلن رأيك بصوت عال واقترب من كرسي الحاكم واصرخ فيه بما تراه وتتمسك به . ولعل ذلك لا يكون من طباعك ولا من العادات المتبعة في بلدك ، حسنا . والطريقة الاخرى كذلك لا اعتراض عليها وذات تأثير فعال . واذن فاجلس ولا تقف وقل بضع كلمات همسا لا يسمعها الا الموظفون المحيطون بك . وهذا كاف للغاية فلا تذكر قلة الجماهير ولا العجلة التي «تزيق» ولا الرباط المقطوع ولا قطع اللباد المتسخة ، لا تذكر شيئا من ذلك فسأتحمل انا به ، وصدقني اذا لم ترغمه شكواي على الخروج فستجعله يعترف قائلا: «ايها الحاكم العديم انا اهين نفسي امامك ، هذه هي خطتي فهل ستساعدني على تنفيذها . بالطبع انت ترغب في ذلك ، بل واكثر انت تفرض على نفسك ذلك» . ثم احتضنه بكلتا ذراعيه وحملق في وجهه لاهث الانفاس . وكان قد القى جملته الاخيرة بصوت عال لدرجة ان كلا من الجندي والرجل قد فزعا من ذلك مع انهما لم يفهما شيئا وتوقفا عن الاكل ونظرا الى الرائد وهما يلوكان اللقمة الاخيرة .

وعند هذا الحد تأكد للرائد ما ينبغي ان يقوله ، لقد مر في حياته بتجارب كثيرة من هذا النوع كان يقابلها بحسم وشجاعة . اما الان في مواجهة الجندي والرجل فقد تردد حالما بلتقط انفاسه ولكنه اخيرا اجاب بما ينبغي قائلا «لا» . فيربث الضابط بعينيه مرات عديدة ولم يحول وجهه . ثم قال الرائد «هل تحب توضيحا ؟» فأومأ ولم يتكلم . فقال « لست اقرك على اجراءاتك حتى من قبل ان تفضي اليّ بخطتك ـ وبالطبع لن افشي بها على اي حال ـ وقد كنت اتساءل: هل يجب عليّ ان اندخل ، وهل سيؤدي ذلك الى شيء من النجاح. وقد ادركت الان لمن ينبغي ان اقول رأيي ، للحاكم بالطبع ، وقد اوضحت لي الامور اكثر من ان تأخذني الى جانبك . وقد هزني اخلاصك ولكنه لن يؤثر على حكمي» .

وظل الضابط صامتا ، ثم استدار نحو الالة ، وأمسك بمقبض قضيب نحاسي ، ثم حملق وهو يتراجع قليلا الى الوراء في «المهيمن» كما لو كان يتأكد بنفسه من صلاحيته . ويبدو ان الجندي والرجل قد توصلا الى فهم شيء ، فأشار الرجل للجندي بصعوبة بسبب الرباط المحكم وهمس له بشيء ما فأومأ الجندي .

وتبعه الرائد وقال له «لم تعرف بعد ما سأفعله ، سأخبر الحاكم برأيي في تلك الاجراءات ، ولكن ليس في مؤتمر عام فلن امكث كثيرا لأحضر مؤتمرات . اذ سأنصرف غدا باكرا ، او على الأقل سأبحر بسفينتي» . ولم يكن الضابط مصغيا اذ كان يهمس لنفسه «وهكذا لا نجد احدا يقتنع باجراءاتك» ثم ابتسم كعجوز يبتسم امام عبث طفولي ، وبعد ذلك استغرق في التدبير لأمر ما .

واخيرا قال «ها قد حان الوقت» ونظر نحو الرائد بعينين فيهما شيء من التحدي وشيء من طلب العون . فسأله الرائد ببساطة «وقت ماذا ؟» ولكنه لم يحصل على اجابة .

وقال الضابط للرجل بلطف «انت حر» وحين لم يصدق ما يسمع اكد له «نعم ، انت حر» ولاول مرة تدب الحياة الحقيقية في وجهه، هل ذلك حقيقة ؟ او هي نزوة عابرة من نزوات الضابط ؟ وهل ذلك الرائد الغريب هو الذي طلب منه ذلك ؟ اين الحقيقة ؟ يستطيع الانسان ان يقرأ كل هذه الاسئلة على وجهه . ولكن لم يدم ذلك طويلا فقد اراد الرجل ان يتأكد من ذلك وبدأ يخلص نفسه من الجراف .

فصاح الضابط «ستمزق الاربطة ، تريث وسنخلصك حالا» . وأشار للجندي لكي يساعده فيما هم به . وجعل الرجل يضحك من نفسه وهو صامت ، ويتلفت تارة شمالا نحو الضابط ، وتارة يمينا نحو الجندي وتارة نحو الرائد .

ثم امر الضابط قائلا «اسحبه» وكان لا بد ان يتم هذا بحذر بسبب حدة الجراف ، ولكن الرجل كان قد جرح ظهره وهو يحاول من قبل ان يخلص نفسه .

ولم يعد الضابط من الان يهتم بالرجل ، بل ذهب الى الرائد

وسحب الحقيبة الجلدية وجعل يقلب فيها حتى عثر على الورقة التي يريدها ، فاظهرها للرائد وقال له «اقرأ ما فيها» فأجابه «لا استطيع وقد اخبرتك من قبل اني لا استطيع ان افسر حروفها» . فقال الضابط «حاول ان تنظر اليها عن قرب» ثم اقترب منه لكي يقرآها سويا ، ولكن كل هذا لم يفد مما جعل الضابط يشير الى الحروف بأصبعه الصغير ـ ولا يلمسها خشية ان يلوثها ـ لكي يتابع معه الكتابة . وقد بذل الرائد جهدا لمجرد ان يرضيه فقط لانه كان عاجزا تماما عن المتابعة . وبدأ الضابط يتهجى الجملة حرفا حرفا حتى قرأها ثم قال «ان معنى هذه الجملة هو «كن عادلا» ، وبكل تأكيد تستطيع ان تقرأها الان» . فانحنى الرائد كثيرا نحو الورقة حتى ان الضابط خشي ان يلمسها فجذبها بعيدا ، فلم يعقب على ذلك وكان واضحا انه لا يستطيع القراءة ، فقال الضابط موضحا اكثر «كن عادلا، هذا ما تعنيه تلك الجملة» فأجابه «ربما ، فانني مستعد ان اصدقك». فقال له باقتناع «حسنا» ثم تسلق السلم وفي يده الورقة حتى وضعها بمنتهى الحرص داخل «المهيمن» ثم جعل يقوم بتغيير وضع العجلات المشرشرة كلها ، وكان هذا العمل شاقا وخاصة انها تحتوي على عجلات صغيرة جدا ، ومن ثم اختفى رأسه كلية في الداخل دلالة انهماكه في العمل .

وجعل الرائد يلاحظ وهو تحت ما يحدث بدون فتور حتى تصلبت رقبته وضاقت عيناه من اشعة الشمس . اما الجندي والرجل فقد انشغل كل منهما بالاخر ، فقد استطاع الجندي ان يخرج «بالسونكي» قميص وبنطلون الرجل من المقبرة ، وكان القميص متسخا جدا فغسله الرجل في الجردل ، وحين لبسهما لم يتمالكا نفسيهما من الضحك فقد كانا ممزقين من الخلف . وجعل الرجل يروح ويجيء بهما لكي يضحك الجندي الذي اغمى على الارض وعض ركبتيه سرورا. ثم ثنيهما لنفسيهما اخيرا وجعلا يكتمان الضحك احتراما للسيدين.

وأنهى الضابط عمله اخيرا ، والقى نظرة وهو يبتسم على كل اجزاء الالة ، واغلق غطاء «المهيمن» الذي كان مفتوحا ، وهبط من السلم ونظر الى المقبرة ، ثم الى الرجل فارتاح حين وجده قد ارتدى ملابسه وتوجه ليغسل يديه في الجرول فتذكر انه قذر للغاية ، فتضايق من ذلك ، واضطر الى حكهما في الرمل ، ثم اعتدل في وقفته وجعل يفك ازرار «الجاكته» الرسمية . وفي اثناء ذلك سقط في يده المنديلان فقال وهو يرمي بهما الرجل «ها هما منديلان» ثم قال للرائد وهو يتمم حديثه «هدية من السيدات» .

وكان يقبض على ملابسه بحب على الرغم من انه كان يخلعها في عجلة ، وجعل يرتب بأصابعه على «مشبك» الجاكته الفضي ويخلخل الزرار عن موضعه . ولكن هذه العناية لم تتفق مع الواقع ، فحالما انهى خلع ملابسه قذف بها نحو المقبرة ، ولم يكن باقيا عليه الا السيف والحزام ، فاستخرج السيف من الجراب وحطمه ، ثم ضم اجزاءه الى الحزام والجراب والقى بالجميع نحو المقبرة فقعقعت من شدة الالقاء .

ثم وقف عاريا ، وعض الرائد على شفتيه ولم يتكلم . فقد عرف ما سيحدث ورأى من الحكمة الا يمنعه من شيء . فان ما عزم عليه هو عين العقل ولو كان في مكانه لما فعل غير ذلك لان ما يعتز به قد اقترب من نهايته نتيجة لتدخله .

ولم يفهم الجندي ولا الرجل شيئا مما يحدث بل ولم يشاهداه، فقد كان الرجل سعيدا بالمناديل ثم اختطفهما منه الجندي بغتة وخبأهما تحت الحزام فحاول ان يستردهما فمنعه وجعلا يتصارعان بشيء من المزاح . ولكن ما ان وقف الضابط عاريا حتى اثار انتباههما ، وراح الرجل يضرب اخماسا في اسداس فلعل الحظ سنح له وما جرى له سوف يجري للضابط . ولعل هذا الرجل الغريب هو الذي امر بذلك ، هذا هو عين الانتقام ، ومع انه لم يقاس حتى النهاية الا انه سيثأر له حتى النهاية ، ومن ثم طافت على وجهه ابتسامة صامتة وعريضة صاحبته طيلة الوقت .

واستبدار الضابط نحو الالة وأمالها لكي يضع نفسه فيها ، واقترب من الجراف يرفعه ويخفضه عدة مرات حتى كان في الوضع المناسب ، ثم لمس حافة السرير فابتدأ يهتز واقتربت السكينة من فمه فنفر منها بادىء ذي بدء ولكنه وطن نفسه عليها . وتم كل شيء ما عد الاربطة فقد كانت معلقة على الجوانب فلم تكن هناك حاجة لربطة. وقد رأى الرجل الاربطة المعلقة وظن ان الاعدام لا يتم الا اذا كانت الاربطة مشدودة فاشار بحماسة للجندي ثم اسرعا نحو الضابط ليوثقاه . اما هو فكان قد مد قدمه ليدفع الذراع التي تدير المهيمن وحين رآهما مقبلين اعادها ، ولكنه لم يستطع ان يصل الى الذراع بعد ان وثقاه ، وقد عجز كل منهما عن ان يجره ، اما الرائد فقد صمم على الا يتدخل بشيء . ولكن ما ان ربطت الاربطة حتى ابتدأت الماكينة تعمل دون الحاجة للذراع وأخذ السرير يهتز ورفرفت الابر فوق الجلد وارتفع الجراف ثم هبط . وحين تذكر الرائد ان احدى العجلات على وشك ان «تزبق» جحظت عيناه ، ولكن تم كل شيء بهدوء فلم يسمع حتى أقل طنين .

ولم تعد الالة تجذب الانتباه بسبب الصمت الذي احاط بها ، ولذلك انصرف الرائد الى مراقبة الجندي والرجل الذي بدا منتعشا اكثر من اي شخص ، وكان يثيره كل شيء في الالة ، فمرة ينحني نحوها ومرة يشب على اطراف اصابعه وهو يشير للجندي الى اجزائها . وقد تضايق الرائد منهما ولم يحتمل منظرهما ، فصاح فيهما «عودا الى البيت» . ولم يمانع الجندي اما الرجل فقد اعتبرها عقوبة والتمس منه ويداه مبسوطتان ان يسمح له بالبقاء ، بل انه ركع على ركبتيه حين هز الرائد رأسه علامة الرفض . ومن ثم عرف الرائد ان الكلام وحده لا يكفي ، فهم ان يذهب اليهما ويطردهما ، ولكنه سمع ضجة آتية من «المهيمن» فنظر فوقه ، يا ترى استريق العجلة بعد كل ذلك ؟ ولكن الامر كان يختلف عن ذلك تماما ، فقد ارتفع غطاء المهيمن ثم انفتح على سعته وهو يفرقع . وارتفعت اسنان العجلة المشرشرة ، بل ان العجلة قد ظهرت كلها وكأن قوة هائلة تضغط عليها فارتفعت حتى الحافة ثم سقطت وتدحرجت قليلا فوق الرمال على حافتها ثم انبسطت على الارض . وتبعتها عجلة ثانية ثم عجلات اخرى كبيرة وصغيرة وكان يحدث لها ما حدث للعجلة الاولى . وفي كل لحظة يخيل للانسان ان محتويات المهيمن قد انتهت ولكن مجموعات من العجل كانت ترتفع ثم تسقط ثم تتدحرج على الرمال حتى تنبسط على الارض، وقد خلب هذا المنظر لب الرجل فنسي تماما امر الرائد وجعل يحاول بدأب ان يمسك بواحدة منها ويحث الجندي على مساعدته ، ولكنه كان يسحب يده لان عجلة اخرى تأتي فتفزعه وهي تتقدم في سيرها .

وأحس الرائد بحرج شديد فان الالة سوف تتمزق اربا ولم يكن صمتها الا خداعا ، وأحس انه قد اخطأ حين لم يمنعه من هذا المصير . وقد استأثرت هذه العجلات المتفلتة بانتباهه فلم يعد يهتم ببقية اجزاء الالة حتى فارقت العجلة الاخيرة المهيمن فانحنى نحو الجراف ففوجيء لانه لم يكن يكتب بل كان يطعن ولم يكن السرير يقلب الجسد بل كان يرتفع به مقشعرا نحو المسامير . وقد اراد الرائد لو كان ممكنا ان يوقفها فهذا ليس تعذيبا فحسب بل هو قتل وألم . فمد يديه نحوها ولكن الجراف ارتفع في تلك اللحظة وقد انغرز فيه الجسد وتحرك جانبا كما هي عادته حين تأتي الساعة الثانية

عشرة . وفاض الدم في قنوات كثيرة ولم يكن مختلطا بالماء لان الرذاذ لم يندفع من الابر . ولم يتزحلق الجسد من الابر مع الدماء ، بل ظل معلقا فوق المقبرة ، وقد حاول الجراف ان يرجع الى وضعه الاول ولكنه أحس بأنه لم يتخلص من حمله فظل فوق المقبرة ، وحينئذ صاح الرائد فيهما «اقبلا وساعداني» ثم تشبث بأقدام الضابط وامسك الآخران برأسه وحاولوا تخليصه تدريجيا من الابر ، ولكن الذكاء خانهما فابتعدا عن الوضع المطلوب فتوجه اليهما الرائد وأمرهما بالبقاء عند الرأس . ثم التفت على كره منه نحو وجه الميت فوجده كما لو كان حيا ، فلا اثر على الضحية وكأنها لم تلق ما لاقاه الاخرون من الآلة . وكانت شفتاه مزمومتين بقوة وعيناه مفتوحتين ولم يتغير فيهما التعبير الذي كان يلازمه وهو حي ، ونظراته هادئة وراضية، وقد انغرس في جبهته طرف الشوكة الكبيرة .

وما ان وصل الرائد وخلفه الجندي والرجل الى اوائل منازل المستعمرة حتى اشار الجندي الى احداها وهو يقول «ها هو المقهى» .

وكان عبارة عن فسحة فوق ارضية المنزل منخفضة وذات تجاويف وقد اسودت حيطانها وسقفها من الدخان وتؤدي على طول امتدادها الى الطريق . ومع ان هذا المقهى قد بدا مختلفا عن بقية المنازل التي كانت تبدو متهدمة ـ ولا نستثني من ذلك قصر الحاكم ـ الا انه قد اثار في الرائد شعورا تاريخيا واحساسا بجاذبية الايام الماضية . واقترب منه يتبعه رفيقاه ثم انحدر الى اليمين بين الموائد التي استقرت فوق الطريق وصافحه هواء ثقيل وبارد يأتي من الداخل . ثم قال الجندي «هنا مدفن الحاكم القديم فان القسيس لم يسمح بدفنه في الكنيسة واحتاروا اين يدفنوه ، وأخيرا دفنوه هنا ، وبكل تأكيد لم يقل لك الضابط شيئا من ذلك». فلم يصدق الرائد وسأل «واين اذن المقبرة؟» فجرى امامه كل من الجندي والرجل وهما يشيران نحوها . ثم قاداه خلف الحائط حين كان يجلس بعض من الرواد وكان واضحا انهم من عمال الميناء فهم اشداء وذوو ذقون قصيرة سوداء ولامعة . ويبدو عليهم الفقر والمسكنة فهم بدون «جاكتات» وقمصانهم ممزقة . وحين اقترب منهم نهضوا والتصقوا بالحائط وحدقوا فيه ثم اطلقوا الهمس حوله وهم يقولون «انه غريب ويريد ان يرى المقبرة» ثم دفعوا احدى الموائد فظهرت الحجارة ، وكانت المقبرة بناء بسيطا ومنخفضا يمكن ان تغطيه احدى الموائد وعليه كتابة بحروف صغيرة جدا اضطر معها الرائد ان يركع على قدميه ليتمكن من قراءتها فاذا بها تقول «هنا يستريح الحاكم القديم ، وقد اقام له اتباعه الذين لا يظهرون الان هذه المقبرة . وبعد سنين معينة ـ كما تدل النبوءة ـ سوف يظهر من جديد ويقود اتباعه من هنا ليستولي على المستعمرة كلها ، فعليكم بالانتظار والاخلاص» . وبعد ان قرأ ذلك وقف فرأى الجميع واقفين حوله وهم يبتسمون سخرية مما قرأ ويتوقعون منه ان يوافقهم على هذا ولكنه تجاهلهم ، ثم وزع عليهم بعض المال وانتظر حتى عادت المائدة فوق المقبرة ، فترك المقهى واتخذ طريقه نحو الميناء .

والتقى الجندي والرجل ببعض المعارف على المقهى فاخروهما ، ولكنهما سلما بسرعة وغادراهم حتى يستطيعا ان يلحقا بالرائد الذي كان قد وصل الى منتصف المنحدرة المؤدية الى القارب ، فاندفعا نحوه لعلهما يحملاه على ان يأخذهما معه . وبينما هو يساوم صاحب القارب ليحمله الى الباخرة اسرعا بخطوات السلالم بصمت لانهما لا يجسران على الصياح . وفي الوقت الذي وصلا فيه الى نهاية السلالم كان قد ركب القارب وأقلع به مبتعدا عن الشاطىء وحاولا ان يقفزا الى القارب ، ولكنه رفع حبلا معقودا وثقيلا وهددهما به فمنعهما من القفز .

القاهرة — ترجمة عبد الحميد ابراهيم

متى يطلع الفجر يا رفيق ؟

قصة الثورة الروسية

بقلم جان بول اوليفيه

ترجمة جورج طرابيشي

صدر حديثا عن دار الاداب — ٧٠٠ ق . ل .